تفريغ لقاء:

من منزلة الغربة إلى منزلة التوحيد

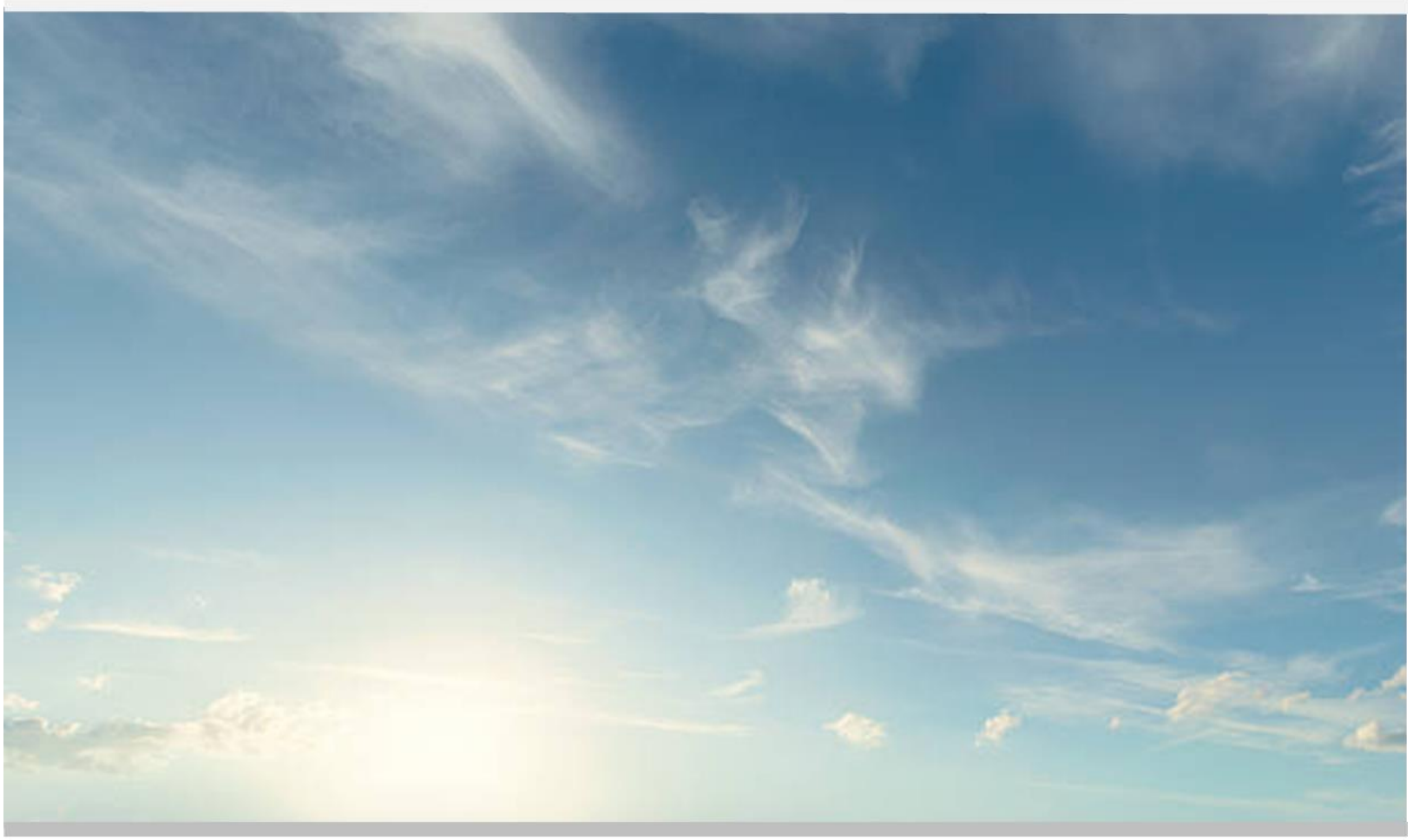

للشيخ: عبدالله العجيري

لم يراجعه الشيخ

لمن لديه أي ملاحظة على التفريغ فليصلنا بها عبر البوت التالي مشكورًا:

بوت تواصل

بسم الله الرحمن الرحيم

و الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على اشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

في البدء أُرحب بجميع الأحبة المُشاركين في هذه المُبادرة الطيبة المباركة (مبادرة رواء)، التي أسأل الله -سبحانه وتعالى- أنها كانت نافعةً، ومفيدةً، ونحن نقترب من نهايتها، وأسأل الله -سبحانه وتعالى- أنكم قد وجدتم في هذه المُبادرة ما يحفز على مطالعة الكتاب الأصل كتاب (مدارج السالكين) للإمام (ابن القيم) -عليه رحمة الله تبارك وتعالى-، أو قراءة تهذيبه وتقريبه (تقريب مدارج السالكين).

ولعلكم قد لاحظتم أن المنازل التي يتكلم عنها (ابن القيم) تتدرج تصاعديًا كما يُقال بحيث أن الإنسان يسلك في مدارج الإيمان مُتَرَقِّيًا من منزلةٍ إلى منزلةٍ حتى يُفضي إلى منزلةٍ أرفع منها وأجلّ، والحقيقة أن المنازل الموجودة في وردنا اليوم -بإذن الله تبارك وتعالى- ولعلكم قد لمستم ذلك في جملةٍ من المنازل السابقة أن هُنالك منازل تُمثلُ منازل نستطيع التعبير عنها بكونها أسبابًا للحصول على منازل أخرى، فنحن و اقعون أمام ثنائية السبب و الأثر -كما يقال-، فلمَّا يتكلم (ابن القيم) -رحمه الله تبارك وتعالى- عن منزلة الغربة، منزلة المعاينة، منزلة الحياة، منزلة المعرفة، منزلة التوحيد، فتستطيع أن تلاحظ أن بعض هذه المنازل هي أثر ونتيجة عن تحقيق منازل أُخرى، و تلك المنازل الأُخرى هي أسبابٌ تترتب عليها

نتائجها و آثارها، وبإذن الله -تبارك وتعالى- سأسعى إلى استعراض مختصرٍ يسيرٍ إلى أهم المنازل التي سنعالجها -بإذن الله تبارك وتعالى- في كلمة اليوم -بإذن الله-.

أول المنازل التي نتحدث عنها منزلةٌ جليلةٌ، وعظيمةٌ، و منزلةٌ ينبغي على الإنسان المسلم أن يهيئ نفسه على استيعاب الصعوبات المتعلقة بها، وهي:

منزلة الغربة: وهذه المنزلة مستوحاةٌ أصالةً من قول النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في الحديث الصحيح: "بدأ الإسلامُ غريبًا وسيعودُ غريبًا كما بدأ فطُوبى للغرباءِ " وقد تنوعت جو ابات النبي -صلى الله عليه وسلم- في الكشف والإفصاح عن طبيعة هؤلاء الغرباء، فقيل للنبي -صلى الله عليه وسلم- في أحد رو ايات الحديث: "يا رسول الله ومن الغرباء؟" فقال: "النُّزَّاعُ مِن القبائلِ" ومعنى النُّزّاع من القبائل: يعني الآحاد الذين تغربوا عن قبائلهم، و عشائرهم، و أوطانهم ودخلوا في الإسلام فكانوا هم الغرباء حقًا، فهم نُزَّاع من القبائل الذين لم يجتمعوا إلا على هذا الدين، وجاء في رو ايةٍ أُخرى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- سُئل وقيل له: "ومن هم يا رسول الله؟" فقال: " الذين يُصلحونَ إذا فسد الناسُ".

وقيل للنبي -صلى الله عليه وسلم- في رو ايةٍ ثالثة: "وما الغرباء؟" قال: "أُناسٌ صالِحون في أُناسِ سوءٍ كثيرٍ، مَن يَعصيهم أكثَرُ ممَّن يُطيعُهم" وصححه غيرواحد.

الحافظ (ابن رجب) -رحمة الله تبارك وتعالى عليه- لمَّا تناول قضية الغربة نَبَّهَ إلى معنىً لطيف، ومعنى يَحْسُنُ التَّنَبُّهُ إليه وقَسَّمَ الغُرَبَاءَ إلى لونين من ألوان الغرباء فقال -رحمة الله عليه-: "وهؤلاء الغرباء قسمان:

*أحدهما: من يُصْلِحُ نفسه عند فساد الناس.

*والثاني: من يُصْلِحُ ما أفسد الناس وهو أعلى القسمين و أفضلهما".

فالمؤمن المُغترب بإيمانه في محيطٍ اجتماعي معين، أو فئةٍ معينة، أو في مكانٍ معين، في زمانٍ معين، لا يخلوا من أن يكون صالحًا في نفسه أو ساعيًا في إصلاح غيره، وما من شكٍ أن مقام الإصلاح للناس هو المقام الأرفع، والمقام الأجمل، والمقام الذي ينبغي أن يطمع الإنسان المسلم أن يحققه، وهو المقام الذي نَبَّهَ عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- لمَّا قال: " الذين يُصلحونَ إذا فَسَدَ النَّاسُ".

وقول النبي -صلى الله عليه وسلم- في روايةٍ أُخرى: "مَن يَعصيهم أكثَرُ ممَّن يُطيعُهم"، يكشف على أن وصف الغربة ألصق بمن يسعى إلى الإصلاح من مُجرد كون الإنسان صالحًا في نفسه وإن كان لا يخلو من معنىً من معاني الغربة.

والإمام (ابن تيمية) -رحمة الله تبارك وتعالى عليه- له رسالةٌ لطيفة في شرح حديث النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: "بَدَأَ الإِسْلَامُ غريبًا" يَحْسُنُ مراجعتها في (مجموع الفتاوى) له -رحمة الله عليه- لكن من التنبيهات المُطْرِبة، و التنبيهات المهمة التي ينبغي على المسلم أن يستحضرها متى ما وقع في لونٍ من ألوان الغُربة،

غربة الدين قوله -عليه رحمة الله-: "وكثيرٌ من الناس إذا رأى المنكر أو تغير كثير من أحوال الإسلام جَزِعَ وكلَّ وناحَ كما ينوح أهل المصائب وهو أمرٌ منهي عنه"

فَيُنَبِّه (ابن تيمية) أن من الإشكالات التي يمكن أن يقع فيها بعض المسلمين عندما يقعون في الشعور بالغربة أو إشكالية الغربة أنَّه يحصل عنده لونٌ من التذمر من الأحوال، ونوعٌ من أنواع الحزن، ونوعٌ من أنواع الجزع، وغيبة الثبات والصبر الواجب المُتَعَيِّن بما لا يجعل هذا المقام أو هذا اللون من ألوان الغربة من مقامات الامتداح التي يُمتدح بها الإنسان، فقال -رحمة الله عليه-:" بل هو مأمور بالصبر، والتوكل، والثبات، على دين الإسلام وأن يؤمن بالله ﴿مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ وأنَّ العاقبة للتقوى" . وما من شكٍ أنَّ مما يُخفف شعور الغربة للإنسان المسلم متى ما عَرَضَ له هذا الشعور استشعار أن التاريخ الإسلامي ممتد من أبينا آدم -عليه الصلاة والسلام- ليمر بالنبوءات جميعًا إلى خاتمهم، و أفضلهم، وأشرفهم -صلى الله عليه وآله وسلم- وصحابته ومن بعده، والتابعين، وتابع التابعين، فله نسبٌ عريقٌ ينبغي عليه أن يستشعره في نفسه، و إنَّهُ و إن اغترب في ظرفٍ زمني نسبي مُعين فإن الإسلام من حيث هو ليس غريبًا على البشرية.

أختم ما يتعلق بهذه المنزلة بتنبيه على قضية قد يقع فيها بعض الناس وهو افتعال مشهد الغربة عبر دعاوى الاستقلال الذاتي، عبر دعاوى الرغبة في عدم الانصياع -كما يقال- لعقلية القطيع -على سبيل المثال-، فيريد الإنسان أن

يفتعل لنفسه لونٌ من ألوان الغربة، يعيش في مجتمعٍ مسلم، في مجتمعٍ فيه خيرٌ كثيرومع ذلك يُحاول أن يصطنع لنفسه لونٌ من ألوان الاستقلالية ليُحدث نفسه بعد ذلك بأنه غريبٌ بهذا المجتمع، وأن نمط التدين الذي موجود عنده هو نمط أجود وأحسن من نمط التدين العام، والحقيقة يحتاج الإنسان أن يُراعي - حتى لا يقع في مثل هذا المأزق أوهذا الإشكال- أن يراعي ثنائية معينة بحيث لا يندفع إلى موافقة المجتمع في كل صورالتدين الموجودة عنده من غيرحجةٍ، من غيربرهانٍ، من غيردليلٍ، بل له الحق أنه يبني معطياته الدينية وفق قيم الحجج، والبراهين، والأدلة. لكن في المقابل لا ينبغي عليه أن يتكلف تَطَلُّبِ المغايرة لعموم المجتمع ليُثبت استقلاليته، ليُثبت لنفسه غربته، فليس من الصحيح، وليس من المستحسن، وليس من المقبول أن يفتعل الإنسان لنفسه لون من ألوان الغربة، بل المطلوب منه أن يبني تدينه على المعطيات الصحيحة، فإذا كانت تلك المعطيات الصحيحة موجبةٌ له أن يقع في حالة من حالات الغربة فليس له في ذلك الطريق سبيلٌ إلا الصبر، والثبات على الدين، لكن في المقابل لا يصح له أن يتكلف هذا المشهد، ويتكلف هذه المنزلة، أويتطلب لنفسه لون من ألوان الاستقلالية لمجرد المغايرة ولمجرد الاستقلالية.

المنزلة التالية هي منزلة لطيفة ذكرها أبن القيم رحمة الله عليه هي:

منزلة المُعاينة: فإذا وصل الإنسان إلى حالةٍ إيمانيةٍ رفيعة، فهذه الحالةِ الايمانيةِ الرفيعةِ تجعله يُبصر ما لا يستطع أن يُبصره غيره، وأن يُعاين بعينِ قلبه ما يعجز الكثيرون عن معاينته، من حقيقة هذه الدنيا، ومن حقيقة الآخرة، ومن حقيقة المخلوق، ومن حقيقة الخالق -تبارك وتعالى-، هذه الحالة الإيمانية هي التي احتملت (أنس بن النظر)-عليه رحمة الله تبارك وتعالى- أن يقول في الأثر المشهور "واهًا لريح الجنة، إني لأجدها دون أُحد" فمن شدة استشعاره لهذا المعنى الإيماني وصل إلى هذه الحالة التي يَشُمُّ من خلالها رائحة الجنة، وإذا وصل الإنسان إلى هذا اللون من ألوان المُعاينة تكشفت له هذه الدنيا على حقيقتها، تكشفت له أحوال، ونقائص، وعيوب المخلوقين على حقيقتهم، وما عاد يغتر بالزخرف، ما عاد يغتر بالبهرجة التي تُغطي هذا المشهد، بل يستطيع أن يُفضي بعين القلب إلى حقيقة الحال، وهذه الحالة وهذه المنزلة في الحقيقة هي المنازل الإيمانية الرفيعة جدًا التي نَبَّهَ عليها النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- في الحديث المشهور حديث (جبريل) لما سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن منازل الدين، الإسلام، والإيمان، والإحسان، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- مُعرفًا مُبينًا أرفع درجات التدين و أرفع درجات الإيمان وهي منزلة الإحسان فقال: "أن تعبدَ اللهَ كأنك تراه، فإن لم تكنْ تراه فإنه يراك".

يعني إذا استطاع الإنسان أن يُحقق هذه القضية بأن يَتَعَبَّدَ لله -تبارك وتعالى- كأنه يُعاين الله -سبحانه وتعالى- فما من شكٍ أن هذه الحالة هي من أرفع المقامات الإيمانية التي يمكن للإنسان أن يصل إليها.

المنزلة التالية:

منزلة الحياة: وهي منزلة لطيفة، ومنزلة جميلة، ومنزله تكشف عن قضية عميقة يحتاج الإنسان أن يراجعها من نفسه -خصوصًا- فيما يتعلق بالمكون الروحاني الموجود فيه، فنحن ندرك أن هذا الإنسان في نهاية المطاف ليس هو مجرد هذا اللحم، ليس هو مجرد هذا البنيان المادي المكون والمؤلف من الذرات التي تُشبَع من خلال القيم الأرضية، بل هنالك مكونٌ أخر متجاوزٌ لهذا الإطار المادي وهي تلك الروح التي تَتَلَهف وتَتَعَطَّش وتُريد أن تعيش، وتُريد أن تحيا، فلا بد للإنسان أن يُغذي هذه الروح بموجباتِ الحياة وأن يتعاطى من أسباب الحياة ما يستبقي حياة قلبه، وأن يدفع عن نفسه وعن روحه وعن قلبه موجبات المرضِ فضلًا عن موجبات الموت، فالحياة الحقيقية للإنسان إنما هي بحياة قلبه، والموت الحقيقي للإنسان هو بموت قلبه، وبحياة القلبِ يَصْلُح حالُ الإنسان وبموت القلبِ يفسدُ حال الإنسان، ولهذا ورد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث المشهور الصحيح قوله: "ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً، إذا صَلَحَتْ، صَلَحَ الجَسَدُ

كُلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ، فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، ألا وهي القَلْبُ"، والحقيقة يهتبل الإنسان هذه الفرصة للحديث عن حياة القلب بالحديث عن أحد أعظم موجبات حياة القلوب، وأحد الأسباب الكبرى التي يتحقق للإنسان من خلاله حياة قلبه وهو :تلاوة كتاب ربه -تبارك وتعالى- والإقبال عليه حفظًا، وتأملًا، وتدبرًا، وقراءةً ودليل ذلك -دليل كون القرآن الكريم من أعظم موجبات حياة القلب- قول الباري -تبارك وتعالى-: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ فالله -سبحانه وتعالى- قد جعل من القرآن روحًا يبعث حياة في النفس التي تتلقاه، وما دمنا مُقبلين على شهر رمضان فينبغي علينا أن نستحضر هذا المعنى، وأن يزيد الإنسان من إقباله على كتاب ربه -تبارك وتعالى-، وأن يستشعر أن هذا الإقبال على كتاب الله -سبحانه وتعالى- يتطلب من خلاله زيادة في حياة قلبه، والحقيقة عندنا علاقة جدلية بين الطرفين -يعني- بمعنى أن كلما ازداد الإنسان إقبالًا على كتاب ربه -تبارك وتعالى- ازداد حياةً، فالقرآن الكريم من أعظم أسباب بَعْثِ الحياةِ في قلبِ الإنسان المسلم، وفي المُقابل كلمَّا كان القلب حيًّا كان قلبًا أقدر على تلقي هدايات الوحي. فعندنا علاقة جدلية بين الطرفين يعني بمعنى أن القرآن الكريم هو من أسباب حياة القلب، وكلما عَظُمَت الحياة في هذا القلب كان أقدر على حُسن استقبال هدايات القرآن الكريم، وحُسن الانتفاع من القرآن الكريم والازدياد به حياةً.

ولذا يقول (عثمان) -رضي الله عنه وأرضاه-: " والله لو صَلُحَت قلوبنا لما شبعت من كلام ربنا" فكلما كَمُلَتْ حياةُ القلب، كُلَّمَا تَشَوَّفَ الإنسان لتحقيق مقامٍ أرفع

وأحسن في تلقي هدايات القرآن الكريم، وعن (أنس) -رضي الله عنه- قال: قال (أبو بكر)-رضي الله عنه- بعد وفاة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لـ(عمر): "انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يزورها" فلما انتهينا إليها بكت فقالا لها: "ما يبكيكِ ما عند الله خيرٌ لرسوله -صلى الله عليه وسلم-" فقالت: "ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خيرٌ لرسوله -صلى الله عليه وسلم- ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء" فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان معها.

فهذا ناشئٌ من حياة قلبها -رضي الله عنها وأرضاها- وأنها مُتحسرةٌ متألمةٌ لانقطاع خبر السماء وهو بمعنى الأثر الوارد عن (عثمان) -رضي الله عنه وأرضاه-، فنحن إذا استوضحنا هذه الحقيقة وأدركناها وهو: أن كلما كَمُلَتْ حياة قلب الإنسان كان قلبًا أقدر على تلقي هدايات الوحي انكشفت لنا ثنائية في غاية الخطورة، وهذه الثنائية هي واردة في كتاب الله -عزوجل-، وواردة في سنة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وهي ثنائية: حياة القلب، وموت القلب، فالقرآن الكريم يكشف عن حقيقة مُذهلة، وحقيقة خطيرة جدًا وهي أن كلَّما كان القلبُ أكثر حياةً كان أقدر على تلقي هدايات الوحي وإذا كان القلب مريضًا أو ميتًا فقد ينقلب القرآن في حقه على الضد، فيقول الله -سبحانه وتعالى- مثلًا: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَاعْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن

مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ فنحن أمام هذه الثنائية في الآية، فالقرآن الكريم هدىً وشفاء للمؤمنين، ومَيِّتِي القلوب في المقابل في أذانهم وقرٌوهو عليهم عمى، ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالقرآن الكريم هداية لأُناس، وقد يكون على آخرين ضلالً وعمى؛ والسبب في ذلك في طبيعة المُسْتَقْبِل لهذا النص القرآني ولوحي الله -تبارك وتعالى-، فهذه قضية ينبغي أن يستحضرها الإنسان، وأن يدركها الإنسان، وأن يسعى في حياةِ قلبه ليُحَسِّنَ من أداء هذا القلب في استقبال هداية ربه -تبارك وتعالى-، وأن القلب الذي لا يستطيع أن يتلقى هداية الوحي هو قلبٌ مريضٌ أو قلبٌ ميت، فيحتاج الإنسان أن يبتعث فيه الحياة، وأن ينزع عنه دواعي المرض حتى تتحقق الهداية. الله -عزوجل- في القرآن يقول: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ فالقرآن الكريم من حيث هو ﴿آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يُحقق الله -عزوجل- الهداية بهذا القرآن الكريم لمن قرأ كتاب ربه -تبارك وتعالى- مُتَطَلِّبًا هدايات الوحي، ولذا يقول (ابن تيمية) -رحمة الله عليه-: "من تدبر القرآن طالبًا الهدى فيه تَبَيَّنَ له طريق الحق" فإذا خلا القلب من تَطَلُّبِ الهدى من القرآن الكريم فلا يمكن للإنسان أن يتحقق له الهداية به.

المنزلة التالية الحقيقة كانت المنزلة الأساسية -التي كنت راغبًا أن أُعلق عليها في هذه الكلمة اليسيرة- هي:

منزلة المعرفة: وما يتصل بمعرفة الله -سبحانه وتعالى- وأن من أعظم العبوديات التي يغفل عنها كثيرٌ من الناس مع عظيمِ ما يترتب عليها من ترقٍ في مدارج الإيمان معرفة الله -سبحانه وتعالى-، ويكفي في ذلك استحضار قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: "أنا أعرَفُكم بالله وأشدُّكم له خشية" فالسبب الموجب لترقي النبي -صلى الله عليه وسلم- في مقامات الخشية منه -سبحانه وتعالى- هو بمقامات المعرفة به -تبارك وتعالى-.

والله -سبحانه وتعالى- يحكي هذه الحقيقة في القرآن الكريم بقوله: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فكلما حَقَّقَ الإنسان مقام المعرفة والعلم به -سبحانه وتعالى- على نحوٍ أَتَمّ كانت الخشية في قَلبِهِ أَتَمّ، ولذا العلماء متواترين ومتواردين على ذكر هذا المعنى "كل من كان بالله أَعْرَف كان منه أخوف"، كل من كان بالله أعرف كان له أشد حبًا، كل من كان بالله أعرف كان له أكثر رجاءً.. وهكذا.

فالمسلم إذا استشعر كمال علم الله -تبارك وتعالى- وكمال حكمة الله -سبحانه وتعالى- اطمئن إلى أوامر الله -سبحانه وتعالى- سواءً كانت الأوامر الكونية، أو الأوامر القدرية، عندما يعرف كمال عدل الله -تبارك وتعالى- و أنَّه لا يظلم -سبحانه وتعالى- مقدار ذرة فإنه يستشعر الطمأنينة حِيَالَ هذا الربّ الكريم العادل -سبحانه وتعالى-.

أما إذا استشعر ما يتعلق بعظيم رحمة الله -تبارك وتعالى- فهو من أكبر الدواعي إلى تحقيق كمال المحبة له -سبحانه وتعالى-، والحقيقة كنت أرغب أن أتحدث بتفصيل واستطالة -كما يقال- في ما يتعلق بهذا المقام؛ لأنه مقامٌ ما أُخفيكم أنه مُحببٌ لنفسي، وسَبَقَ أني قدمت فيه دورة مُعينة، لكن لي محاضرة منشورة على الأقل في نصف هذه المحاضرة المنشورة الأول تحدثت فيها عن شيءٍ مما يتعلق بفضائل معرفة الله -تبارك وتعالى- فاختصارًا للوقت أُحيل إليها لمن كان متشوفًا راغبًا في سماع مادةٍ علميةٍ متعلقة بمنزلة المعرفة وهي من أجلّ وأعظم المنازل التي يمكن أن تتحقق للإنسان، وعنوان هذه المحاضرة: السر الأعظم.

المنزلة التالية -وهي خاتمة المنازل التي خُتم بها الكتاب- وهي:

منزلة التوحيد: والحقيقة قبل أن نَدْلِفَ إلى الحديث عن منزلة التوحيد أود أن أُذَكِّرَ بقاعدتين، أو قانونين، أو حقيقتين ينبغي أن يستحضرهما الإنسان المسلم فيما يتعلق بهذه المنزلة وما يتعلق بغيرها من منازل الدين:

* فالحقيقة الأولى: هي حقيقة متعلقةٌ بماهيَّة ومفهوم العلم في التصور الإسلامي، فمفهوم العلم الشرعي ليس في الإسلام مجرد معلوماتٍ نظرية، بل العلم في منظور الشريعة هو العلم النافع الذي يُثمر آثاره، وقد نبهنا قبل قليل لقول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فإذا لم

يتحقق من العالِمِ تحقيق مقام الخشية فعلمه -كما يقال- مدخول، ولذا من الحقائق التي يتلمسها الإنسان في خطاب الوحي وصفُ الجهل -على سبيل المثال- فالجهل حقيقة قد يكون حاصلًا لا عن مُجرد تخلف المعلومة النظرية من العقل، ومن النفس، ومن القلب، وإنما يكون بتخلف آثار العلم، ولذا يقول الله -سبحانه وتعالى- مثلًا في القرآن الكريم: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ فالعلماء نَبَّهُوا قالوا: "هذا المذنب العاصي لو وقع منه هذا الذنب والمعصية بمحض الجهل -أنه فعلًا هو جاهلٌ تمامًا بحكم الله عزوجل بهذه المسألة- فلا يكون -أصلًا- محل مؤاخذة -كما يقال- فلمَّا نَبَّهَ الله -سبحانه وتعالى - إلى تحقيق التوبة من هذا الواقع في هذا الذنبِ جهلًا دلَّ ذلك على أنه ليس المقصود به غيبة العلم بالكلية، وإنما هو لونٌ من ألوان العلم الذي لم يترتب عليه أثره بما يَصِحُّ أن يُقال لهذا الإنسان بأنه جاهل، ولذا هذه القضية كذلك يستحضرها الإنسان في ما يتعلق بمجالات أُخرى مثل: العقل -على سبيل المثال- فإذا الإنسان لم يستثمر عقله في ضبط نفسه وتترتب عليه الأثر المنشود والمطلوب منه صَحَّ لغةً أن يُقال بأنه فاقدٌ للعقل أو ليس بعاقل.

ليس بعاقل لا بمعنى غيبة ملكة التَّعَقُل، لكن لمَّا غاب الأثر المُتَرَتِب على وجود هذا العقل من هذا الإنسان صَحَّ في حقه أن يُقال ذلك، ولذا يقول الله -سبحانه

وتعالى- في القرآن الكريم –مثلًا- في حق الكفار: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ كأنهم يقولون لو كنا متحققين بوصف العقلِ لما وقع منا ما وقع مما أستوجب هلاكنا و دخولنا النار، و(ابن القيم) -رحمة الله تبارك وتعالى عليه- في (مفتاح دار السعادة) تحدث عن هذه القضية في مقطع مهم ونقل من الآثار عن السلف الصالح -رحمة الله عليهم- ما يدل على هذا المعنى، وأن العَالِم وأن الفقيه هو الذي يعمل بعلمه، وبالتالي القاعدة الأولى التي ينبغي أن نلاحظها و نستصحبها قبل الدخول فيما يتعلق بمنزلة التوحيد: هو قانون العلم في التصور الإسلامي، وأن العلم في التصور الإسلامي ليس مُعطىً نظريًا محض، و إنما هو معطىً نظري تترتب عليه آثاره، فإذا ترتبت آثاره صَحَّ أن يُسمى علمًا في التصور الشرعي.

*<u>القاعدة الثانية:</u> وهي قاعدة لا تَقِلُّ أهمية من القاعدة الأولى، وهي أن تفاضل الأعمال بتفاضل ما في القلوب، فليس التفاضل الواقع بين الأعمال هو بمجردِ الصورة الظاهرة لها، فمع أهمية تحقيق مقام المتابعة للنبي -صلى الله عليه وسلم- في ما يتعلق بصور الأعمال و ظواهر الأقوال لكن القضية الأكثر إلحاحًا والأكثر أهميةً أن يحتفي الإنسان ويعتني فيما يتعلق بقلبه لحظة تأدية هذه الأعمال، فيمكن أن يشترك العملين في صورةٍ واحدةٍ تمامًا لكن يتفاضل هذين العملين عند الله -سبحانه وتعالى- بما انقدح في قلبِ هذا، وما انقدح في قلبِ هذا من معاني الإخلاص، من معاني اليقين، من معاني المحبة، من معاني التوكل،

والتسليم، و الإذعان، و الانقياد لله -تبارك وتعالى-.. وغيرها من الحقائق القلبية. وبالتالي -مثلًا- لمَّا يقول النبي -صلى عليه وسلم- في الحديث المشهور: "فمَن هَمَّ بحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها، كَتَبَها اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً، وإنْ هَمَّ بها فَعَمِلَها، كَتَبَها اللَّهُ عزَّوجلَّ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَناتٍ إلى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ إلى أضْعافٍ كَثِيرَةٍ" هذه المُضاعفة للحسنات في حقيقةِ الأمر هي عائدةٌ إلى ما ينقدح في قلب الإنسان، فمضاعفة الحسنات مرتبطٌ بهذه المعاني الإيمانية القلبية وبالتالي يحتاج الإنسان المسلم -دائمًا- أن يستحضر لحظة تأديته لهذه العبوديات أن يلتفت إلى قلبه، وأن يُراجع إيمانه، و أن يَتَلَمس من قلبه الكمال حتى تقع هذه الأعمال أكثر كمالًا من عند الله -سبحانه وتعالى-، فتفاضل الأعمال إنما يكون بتفاضل ما في القلوب.

طيب لماذا قدمنا بهاتين الحقيقتين؟ -و ما عندنا طبعا إرادة في أن نفصل الكلام في ما يتعلق بمنزلة التوحيد فالكلام في مثل هذه القضية واسع جدًا- لكني أحببت التنبيه إلى مسألتين مهمتين جدًا فيما يتعلق بتحقيق التوحيد لله -تبارك وتعالى- على الوجه الذي يحبه الله -سبحانه وتعالى- فليس المطلوب لتحقيق مقام توحيد الله -سبحانه وتعالى- هو مجرد ذلك التعاطي النظري مع هذه الحقيقة، أن الإنسان يدرك نظريًا أن الله -سبحانه وتعالى- واحد في ذاته -تبارك وتعالى-، واحدٌ في صفاته، واحد في أفعاله، أن يدرك إدراكًا نظريًا أن الله -سبحانه وتعالى- هو واحد في أُلوهيته، و عبوديته، هو واحدٌ -سبحانه تعالى- في ربوبيته، يدرك أن الله –سبحانه وتعالى- هو واحدٌ في أسمائه وصفاته، وغير ذلك من المعاني المتعلقة

بأحدية الله -سبحانه وتعالى-، بل المطلوب من الإنسان أن يُحقق مقام التوحيد لله -تبارك وتعالى- بما يترتب عليه أثره و النتيجة المترتبة عليه بتعظيمه، و إجلاله، وتوقيره، و استشعار صدق وحدانيته -سبحانه وتعالى-، فإذا استشعر الإنسان – مثلًا- أن الله -سبحانه وتعالى- هو الرزاق وحده -جل وعلا- انتزع ذلك المعنى من قلبه كل تَخَوُّفٍ من الخلق إذ الرزق ليس إليهم بل الرزق إلى الله -تبارك وتعالى-، فهذا الملحظ الأول: أن ليس المطلوب في تحقيق توحيد الله -سبحانه وتعالى- هو مجرد الإدراك النظري، بل الإدراك المعرفي العلمي الذي تترتب عليه آثاره،

*<u>والقضية الثانية:</u> -وهي لا تقل أهميةً عن الأولى- أن تحقيق مقام التوحيد لله -سبحانه وتعالى- يتفاوت فيه الناس أعظم التفاوت بحسب ما ينقدح في قلوبهم لحظه نطقهم بهذه الكلمة الشريفة العظيمة: أشهد أن لا إله الا الله.

فالنبي -صلى الله عليه وسلم- مثلًا لمَّا يقول: " مَن شَهِدَ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ مُخلِصًا مِن قَلبِه -أو يَقينًا مِن قَلبِه- لم يَدخُلِ النَّارَ-أو دَخَلَ الجنَّةَ-" وقال مَرَّةً: "دَخَلَ الجنَّةَ، ولم تَمَسَّه النَّارُ "، "مَن شهِد أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ مخلصًا مِن قلبِه دخَل الجنَّةَ" لابد أن يتوقف كثيرًا الإنسان عند لفظة "مُخلصًا مِن قلبِه" أو "يَقينًا مِن قَلبِه" ويدرك بالضرورة أن الناس عندما يؤدون هذه الكلمة تراهم يتفاوتون تفاوتًا كبيرًا في استشعارهم للمعاني الإيمانية القلبية التي تقترن بالنطق بهذه الكلمة، ولذا من ألطف وأجمل أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم- الكاشفة عن هذه الحقيقة العميقة قول النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: "يُصَاحُ برجلٍ من أُمَّتِي يومَ القيامةِ على رُؤُوسِ الخلائقِ، فيُنْشَرُ له تِسْعَةٌ وتِسْعُونَ سِجِلًّا، كلُّ

سِجِلٍّ مَدُّ البصرِ، ثم يقولُ اللهُ تبارك وتعالى: هل تُنْكِرُ من هذا شيئًا؟ فيقولُ: لا يا ربِّ، فيقولُ: أَظَلَمَك كَتَبَتِي الحافِظُونَ ؟ فيقولُ: لا يا ربِّ، ثم يقولُ: أَلَكَ عُذْرٌ، أَلَكَ حسنةٌ ؟ فيَهَابُ الرجلُ فيقولُ : لا، فيقولُ: بلى، إنَّ لك عندنا حسنةً، و إنه لا ظُلْمَ عليكَ اليومَ، فتُخْرَجُ له بطاقةٌ فيها أشهدُ أن لا إله إلا اللهُ، وأنَّ مُحَمَّدًا عبدُه ورسولُه، فيقولُ: يا ربِّ ما هذه البطاقةُ مع هذه السِّجِلَّاتِ ؟" مُقللًا لها ومن أثرها "فيقولُ: إنك لا تُظْلَمُ، فتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ في كِفَّةٍ، والبطاقةُ في كِفَّةٍ، فطاشتِ السِّجِلَّاتُ".

هذا الحديث (ابن القيم) -رحمة الله عليه- في مقام آخر وفي منزلةٍ أُخرى في أثناء (المدارج) -وأرجو أنه مرَّ عليكم- تحدث عن هذا الحديث، وأنَّ كل إنسانٍ مُسلم عنده هذه البطاقة، لكن ليس كل إنسانٍ مسلم من تحقق توحيده لله -سبحانه وتعالى- على وجهٍ فيه نقص يؤثر هذا التوحيد هذا الأثر العظيم بحيث تطيش سجلات السيئات في مقابل هذه الحسنة العظيمة التي أتى بها: وهي توحيد الله -سبحانه وتعالى-، ولذا نفس القضية عندما يقول النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- مثلًا في الحديث الثابت الصحيح عنه -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: "قال اللهُ تعالَى: ... يا ابنَ آدمَ إنك لو أتيتَني بقُرابِ الأرضِ خطايا، ثم لَقِيتَني لا تشركُ بي شيئًا، لأتيتُك بقُرابِها مغفرةً" تحقيق هذا المقام من التوحيد وعدم الشرك به -تبارك وتعالى- ليس لكل أحد بل الناس يتفاوتون في هذا أعظم التفاوت، و تفاوتهم هو في تحقيق العبوديات القلبية لحظة الإيمان والنطق بهذه الكلمة الشريفة العظيمة، وأن الإنسان متى ما تحقق بهذا المقام وهو عدم

الشرك بالله -سبحانه وتعالى- على هذا النحو المطلق، فذنوبه وخطاياه تقع مُكفرة عند الله -سبحانه وتعالى- و مغفورة له -سبحانه وتعالى- وإن عظمت وإن كثرت، لكن من الناس من يضعف معنى لا إله الا الله في قلبه بحيث أنها لا تؤثر هذا الأثر الكبير العظيم.

هذه مجرد خواطر سريعة فيما يتعلق بهذه المنازل العظيمة الجليلة، مدركٌ أنها تستحق كلام أجلَّ وأعظم من مثل هذا الكلام ولكن ما لا يُدرك كله لا يُترك كله وأسأل الله -سبحانه وتعالى- أن يكون فيما ذُكر نفعٌ و إفادة.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد.